﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١﴾ [الحجر: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا أخبر الله تعالى أنَّه قد أرسل رسلًا في الأمم السابقة؛ بيَّن في هذه الآية كيف تعاملت هذه الأُمم مع هؤلاءِ الرُّسُلِ، فقال: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

تقبيح عملِ الأوّلين والمتأخّرين من الكافرين، لتواصيهم في الاستهزاء بالرُّسل

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: أصلُ (هزأ) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تدلُّ على السُّخرية، يُقالُ: هَزِئَ واسْتَهْزَأ؛ إذا سَخِرَ، وأصله من استخفاف المستهزِئ بالمستهزَأِ به وذهاب قيمته عنده، وكلُّ ما ورد في القرآن من (الاستهزاء)؛ فهو بمعنى السخرية مع استخفاف قدر المستهزَأ به، والهُزْءُ: مزحٌ في خفية، والاسْتِهْزاءُ: ارتيادُ الهُزُؤ، وإنْ كان قد يُعبَّرُ به عن تعاطي الهزؤ، والمرادُ بـ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ في الآية: المُبالغَةُ في السُّخريةِ والاستخفافِ بالآخرين[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذَكَرَ الحقُّ ﷻ حال هؤلاء الرُّسلِ مع تلك الشّيع المتجمِّعة على الباطل، فقال: وما أتَى تلك الأُمَمَ الماضية مِن رَسولٍ أرسَله اللّهُ إليهم؛ لدَعوتِهم إلى الحَقِّ، إلّا سخِروا به، وكَذَّبوه[2]، فما من رسولٍ جاءهم بالدعاء إلى توحيد اللّه والإذعان بطاعته إلّا كانوا منه يسخرون، وفي هذا تَسْلِيَةٌ للرَّسول ﷺ، فكما فَعَل بك هؤلاء المشركون، فكذلك فُعِلَ بمن قبلك من الرُّسل[3].

محنة الرُّسل والأنبياء مع أقوامهم واحدة، في كلّ العصور

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (هزأ).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/20، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/527.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/69، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 262.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم﴾:

بيان قبح فعالهم بمن يأتي من الرّسل

أفاد دخول (ما) على الفعل المضارع، حكاية الحال الماضية؛ لتصوير قبح عملِهم[1].

فائدة مجيء ﴿مِّن﴾:

أفاد حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ التَّنصيصَ على استغراق جنس كلِّ الرُّسل، ففيه تعجيبٌ من الكافرين في استهزائهم بكلِّ رسولٍ يأتيهم، فكأنَّهم تواصوا بالاستهزاء بالرُّسل.

بلاغة تعليق حكم الاستهزاء على المشتقِّ ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾:

التَّعجيبُ من عملِ الكافرين، لجعلِهم وصفَ الرِّسالة سببًا للاستهزاء بالرُّسل

لَمّا علَّقَ الحكم، وهو الاستهزاء على إتيان الرَّسول؛ دلَّ على علِّيَّة المأخذِ، بمعنى أنَّ استهزاءهم بمن يأتيهم كان بسبب ما اتَّصَفَ به من كونِه رسولًا من عندِ اللّه، وليس بسببِ شيء آخر يقتضيه التَّكذيب أو الاستهزاء، تقبيحًا لعملِهم، وبيانًا لعادتِهم في معاملةِ رسل اللّه عليهم السلام.

فائدة تقديم ﴿بِهِۦ﴾ في سياق الآية:

كثرة استهزاء الكفّار بالرَّسول نُزِّلَ منزلة من ليس له عمل سوى الاستهزاء به

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الجملة الفعلية ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للإيذانِ بتخصيصِ استهزائهم بالرَّسول على طريق القصر الإضافي للمبالغة، أيْ: كانوا يبالغون في الاستهزاء به، والمعنى: قد قَصَروا استهزاءهم على رسولِهم الذي أرسله اللّه تعالى فيهم؛ لِأَنَّهُمْ لَمّا كانوا يُكْثِرونَ الِاسْتِهْزاءَ بِرَسولِهِمْ ﷺ، وصارَ ذَلِكَ سَجيَّةً لَهُمْ؛ نُزِّلوا مَنْزِلَةَ مَنْ لَيْسَ لَهُ عَمَلٌ إلّا الِاسْتِهْزاء بالرسول ﷺ[2].

سبب إيثار التَّعبير بقولِه: ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

لم يَقُلْ: (إلّا كانوا منه يستهزِئون)، فجاء بالباء، وقال: ﴿بِهِۦ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف/572، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/207.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/23.

﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لأنَّه لَمّا كانت الباء للملابسة؛ دلَّ على أنَّ استهزاءهم كان بجميع ما يكون من الرَّسول، أيْ: ملابسَةِ الاستهزاء لكلِّ الرَّسول، ولو قال: (منه يستهزِئون)؛ لأفاد استهزاءهم بأمرٍ من أموره وشأنٍ من شؤونِه، فأفاد مجيء الباء المبالغة في السُّخرية والاستهزاء.

إفادة باءِ الملابسة المبالغة في استهزاء الكافرين برسلِهم

دلالة عود الضّمير في ﴿بِهِۦ﴾ على الرّسول:

لَمّا كان الضَّمير عائدًا إلى لفظ ﴿رَّسُولٍ﴾؛ أفاد أنَّ استهزاءَهم كان بالرَّسول الذي أرسله اللّه تعالى، لِيُشْعِرَ أنَّ سببَ استهزائِهم هو ما اتَّصفَ به من الرسالةِ، وليس بغيره.

علّة الاستهزاء الرّسالة الّتي جاء بها

سرّ مجيء المسند ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ جملة فعلية:

لَمّا كانت الجملة الفعلية ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ خبرًا لـ﴿كَانُواْ﴾؛ أفادت تَقْوِيَةَ الحُكْمِ وتقريرَه، بمعنى: تحقيقِ كونهم كانوا يستهزِئون بالرّسول ﷺ.

بيان استهزاء الكافرين بالرَّسول ﷺ

دلالة التَّركيب ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

لَمّا كان تركيب (كان يفعل) يُفِيدُ اسْتِمْرارَ الفِعلِ والمداوِمَةَ عليه؛ أفاد قوله تعالى: ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ استمرار استهزائِهم بالرُّسل والمداومةَ عليه، وكأنَّه ليس لهم شأنٌ سوى الاستهزاء، أو يقال: ﴿كَانُواْ﴾ دَلَّتْ عَلَى أنَّ الاستهزاء بالرُّسل سَجِيَّةٌ لَهُمْ، والمُضارِعُ دَلَّ عَلَى تَكَرُّرِهِ مِنْهُم، وفي مجيء الفعل مضارِعًا حكايةٌ للحالِ وتصويرٌ لها؛ لإظهارِ قبيح فعلِهم، وإشعارٌ بأنَّ الاستهزاء قد يزيد، وذلك دليلٌ على أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قد بلغَ منهم مَبْلَغًا(1).

الاستهزاءُ بالرُّسل من أقبح أعمالِ الكافرين

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

قال اللّهُ تعالى في سورة الحِجْر: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وقال في

من براعة نظمِ القرآن، مجيءُ كلِّ لفظ على ما يناسبه في السّياق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/23، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 12/7655.

سورة الزخرف: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۞ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۞﴾ [الزخرف: 6 - 7]، فذكر في آية الحجر ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾، وفي آية الزّخرف قوله: ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ [الزخرف: 6]، والسّببُ هو أنّه لّمّا تقدَّمَ ذِكْرُ الرّسالةِ في سورة الحِجر؛ ناسبه ذِكْرُ الرَّسول، ولّمّا تقدَّمَ ذِكْرُ النّبوَّةِ في سورة الزّخرف؛ ناسبه ذِكْرُ النبوَّة، كما أنَّه لّمّا تقدَّمَ في آية الزخرف ﴿وَكَمْ﴾ [الزخرف: 6] الخبريّة التّي تُفِيدُ التَّكْثيرَ؛ ناسب ذلك ذكر النّبيِّ الموحى إليه؛ ليشمل مَنْ كانَ مُرْسلًا، ومَنْ كان غيرَ مُرْسَلٍ، فورد هنا ما يعمُّ الصِّنفين عليهما السلام وأمّا آيةُ الحِجر؛ فلم يرد فيها ولا قبلها ما يطلب بالتكثير مع ما تضمَّنت من قصد تأنيسه ﷺ، وتَسْلِيَتِه، فَخُصَّتْ بالتعبير باسم الرسالة تسليةً له عن قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ بما جرى للرُّسل قبلُ عليهم السلام من مثل ذلك، ومن البيِّن أنَّ موقع الرّسل هنا أمكن في تسليّته، ﷺ، فجاء كلٌّ على ما يجب من المناسبة[1].

دلالة الاستثناء بالأداة ﴿إِلَّا﴾:

إصرارُ الكافرين على الاستهزاء بالرُّسل مقصودٌ مبيَّتٌ

في قولِه: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أفاد الاستثناءُ بمجيئه بطريق النَّفي والاستثناء أنَّ الكافرين كانوا مُصِرِّين على الاستهزاء برسلِهم قاصدين له مبيِّتين للأمر مع تكرُّره منهم؛ لتشكيكِهم ولترك دعوتِهم، وآذن أنَّهم كانوا مُخْطِئِينَ بعملِهم ومُصِرِّين على خطئهم.

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/289، وابن جماعة، كشف المعاني، ص: 222.